النبي محمد ومجتمعه التعددي المدني

بسام علي الكلباني

يؤكد محمد عمارة في مقاله «سماحة الإسلام» أن السماحة قد بدأت في التاريخ الإنساني منذُ نشأته لحظة ظهور الإسلام، فقد بلَغ محمدٌ- صلى الله عليه وآله - ومن معه مستوىً لا نظيرَ لهُ في التاريخ الإنسانَي، حتى جعلت الشرَيعة الإسلامية الغراء من الاختلاف الديني سنة من سنن الله التي لا تحويل لها ولا تبديل، وقد شرّعت بذلك دستوراً تعاقدياً مع الآخر وأمرتهُ بالإيمان بما جاءت به شريعته بعدما أمنت له ولدور عبادته الحماية والغطاءَ القدُسي المفروض على كل المواطنين والمستوطنين من احترام للآخر المختلف، والتبشير بمجتمعٍ تعددي ذي طابع مَدني في شؤون الدولة الإدارية وطابعٍ متسامحٍ في الجانب الديني .

لكن التساؤل ما إذا كان الإسلامُ قد ميّز بين ديانات وأخرى أو فاضل بينهما من الجانبِ الديني ، كما زعمَ الغربُ وعلى رأسهم الفيلسوف الألماني العدمي (فريدريك نيتشه) الذي زعَمَ أن الإسلام قد جحد بكل الديانات التي لمي عرفّها القرآن ووصفها بأنها ديانات وضعية، وقد احترم تلك الديانات السماوية (الإبراهيمية) لسبب واحد هو كون الإيمان الإسلامي لا يكتملً في الدَين دون الإيمان بالكتب والرسل أجمعين (ولا نفرقُ بين أحد من رسله)، وأن الاعتراف بالآخر هو ركنٌ من أركانِ الدين وصحة العقيدة؛ إلا أنّ الأخير لم يكن على علم بأنّ القرآن والسنة لم تكن تفرقُ بين الديًانات أجمعين بل وضعتها على حد سواء، والفاصل بين كل هؤلاء والمفاضلة بينهما تتم على مستوى التقوى الموجود بقلب كل مؤمن (إن أكرمكم عن الله أتقاكم) ، مَن جهة أًخرى ، ابتدأ الدستورُ الإسلامي (القرآنً) بالتأكيد على الله سبحانه وتعالى هو ربُّ العالمين (اَلحمد لله رب العالمين) وبذلك يعلنُ القرآن صراحةً أن الربَّ ليس حكراً على المسلمين دون غيرهم ولا شعب دون آخر ولا ملة أو أمة أو طائفة دون الأخًرى، بل إنهُ للعالمًين، وبذًلك كانت ًلفاتحة القرآن أن تتصدى لكل المزاعم الغربية الفلسفية والعرقية والعقائدية التي اختصت الربَّ لملة دون أخرى ؛ كالشعب اليهودي الذَي اختص اًلربَّ (يَهْوه) للساميينَ المؤمنين بيهودية موسى – عليه السلام – ولم يكن حكراً على عرقٍ دونَ الآخر كالعرق الآري الذي تغنت به أوروًبا يومها وتعالى عن البشرية في القرنِ التاسع عشر ومطلع القرن العشرين؛ الذي اَستعبدَ الناس واتسم بصفات التعالي والألوهية والانعكاس الإلهي، ومن جهةأخرى ؛ فإن العقيدة الإسلامية اختلفت في ًمنظومتها الفلسفية عن كل الفلسفاتَ الكلاسيكية الأخرى التي اتصفت بالحقدَ والكره واختزال مفهوم الربِّ على مدرسة فلسفية دون الأخرى ونستشهد بذلك حادثةً (سقراًط) المقتول بالسم، حيث حملت تلك المدارس الفكرية اَلأخرى نوعاً من البيانَ الغارق في الرمزية الحاملة للعديد منَ التأويلات المبهمة وَغير المفهومة التَي لم تكن لتقنَن تعاليمها سوى لانتقاص المدارس الفلسفية الأخرى، وقد قنّنت العديد من آليات الاستبعاد والتهميش وإنكار الآخر وشطبه منَ المنظومةَ البشرية؛ وما زالت تعاليم أفلاَطون خيرَ دليل على تلك الممارسات والتطبيقات في الفكر اًلربوبي واللاهوتي على غرار الآية الأولى من كتاب الله التي تتسم بالصراحة والشفافية غير القابلة للتأويل ولا لألاعيب اللغِة أو للتفكيك وإعادة الهيكلة، فقد قضى الله بها في كتابِه الحكيم.

هذا الإنكارَ والتمييز واحتكار الربِّ قد تجسّدَ طورَ الواقع والممارسة والتطبيق في تلك الحضاراتِ الغَربية التي لَم تتسع لرب واحدِ للبشرية؛ ففي الحضارة الإغريقية كانً للشرًفاء ربّاً مخالفاً للناس العاديين والعبيد، وكانت المعابدُ حكراً على أولئك البشر دون غيرهم، وقتهاَ كان ربهم المزعوم (آريز) حكراً على تلك الطائفة المنتقاة والأشراف فقط. كذلك هو الحالُ للحضارة في طورها الروماني، عندما عَرفَت مصر الديانة المسيحية ، حينها لقيت تلك الأخيرة أشد أنواع العذاب والاضطهاد الذي ليس له مثيل في تاريخ القبطية المصرية، على يدِ الرومان المستعمرين والمصريين الوثنيين، حَيثُ يشهدُ التاريخ أنّ المسيحيين قد قدمت جثثهم بعدَ الذبح طعاماً للأسود وأسماك البحر، وما أن تحَولَ الحالُ أن آمنت مصر بالمسيحية في عهد الإمبراطور (قسطنطين)، إلا وأصابَ الوثَنيين ما أصابَ المسيحيين قبلهُمْ منهم، فأقاموا عليهم ضعفَ العذاب والانتقام، حتى هُدّمَت معابدهم وقتل كل من فيها من رجال الدين وأحرقت مكاتبهم ودمرت معابدهم وآثارهم وحولوا ما بقي من معابدها إلى كنائس وأديرة؛ يومها تكبدت (هيباتيا) الفيلسوفة المصرية وعالمة الرياضيات والفلك أشدَّ أنواع العذابِ حيث تمّ سحلها وسحبُ جثتها على الطريقَ وذبحها وحرقها.

بيد أنّ الاختلاف وإنكار الآخر لم يكن محصوراً بين الديانات، بل في الديانات نفسها، حيث نشبَ النزاعُ المسيحي- المسيحي في القرن الأول بعد ميلاد المسيح – عليه السلام –بين المسيحية الرومانية "الملكانية" وبين المسيحية المصرية "اليعقوبية"، حتى هاجرت الأخيرة إلى الصحراء والكهوف والجبالِ خوفاً من القتلِ بعدما نشَبَ الخلافَ حولَ ماهية المسيح أكان رباً أم ابناً للربِّ، فهربَ رئيسُ كنيَستهم يومها البطرك (بنيامين) ١٣ عاماً حتى استدعاه وأمنهُ على نفسه ودينه الصحابي الجليل (عمرو بن العاص) في فتَح مصر. ذلك الخلاف لم يكن تاريخاً أو وصمَة عارٍ وانتهى؛ بل إنَّ النزاعَ نشَبَ في المسيحية حتىً القرون الوسطى وصولاً إلى القرنِ التاسع عشر، بين طوائف المسيحية الكاثوليكية والبروتستانتية والأرثوذوكسية؛ حينما اقتتلت الطوائف بعضها ودمرت كنائسهم وأجبرت كل طائفة على أن تتبع الأخرى.

فتح (عمرو بن العاص) مصرَ وأعاد للمسيحيين ما لهم من حقوق وأموال منهوبة وكنائسَ منكوبة وأديرةً محروقةً وبيوت مًستعمرة لتُكتَبَ بذلك أولُ صفحة منً صفحاَت التسامح في تاريخ البشرية جمًعاء، ولم يكنَ ذلك التَسامحُ حصَراً على أهَل الكتاب من غيرهم، حيثُ يذكرُ التاريخُ أيضاً فَورَ فتح بلاد (فارس)؛ أنّ المسلمين قد رأوا بعضاً من أهلهَا ما زال على مجوسيته، وقد عُرضَ ذلك على الخليفة (عمر بن الخطَاب) – رضي الله عنهُ – وعرضهُ هو على معشر المسلمين ليقف أحد الصحابة ويشهدَ أنّ النبي – صلى الله عليه وآله - قد أمر الصحابة أنّ يعاملوهم معاملة أهل الكتاب.

ماذا قدَّم الإسلامُ للبشرية في الجانب الديني؟ تلك المعايير المصنفة للبشر، ومقاييس المفاضَلة والتفاضُل قد دَحَضَها الإسلامُ ليجعلَ لها شَرطاً واحداً وهو التقوى، بعد الإيمانِ بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، فالَتقوى هي الركيزةُ الأسمى في التمييزِ بين البشر مهما اختلفت انتماءاتهم (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره).

فالمقصًدُ الإسلامي من وراءِ التعددية هو تحقيقُ التوازن والتعايشَ السلميين بين الشرائع والطوائف ليكنَّ بذلكَ اللبنة الأساسية لَبناء دولة مدنية، ونستشهد بذلك معاملة النبَي - صًلى الله عليه وآله - مع اليهود عند هجرته للمدينة، حينما وقّعَ معهم عهداً وميثاقاً يَقضي ضمانات لتلك الطائفة اليهودية بألا يضاروا ولاً يعادوا ولا تُنهب أموالهم ولا يُجبروا على القتالِ ولا يدفعوا ضرائبَ التجار ولا يجبروا على النكاح إلا برضاهم ولهم وعليهم ما على المسلمين وما لهم، وكذلك هو الحال مع نصارى (نجران)، فقد قنَّن الرسول - صلى الله عليه وآله - تعاقداً دستورياً، وشملهم برعايته، ولهم كاملُ المساواةِ والإنصاف في المواطَنَة، وشملت تلك المعاهدة الحماية المدنية لهم في السلم والحرب، ولكنائسهم ولدور العبادة وبيعهم ومالهم وبيوتهم، حتى مَنَعَ الصحابة من بعدِه بأن يجبروهم على الخروج للقتال في حَساب الدولة الإسلامية؛ حيث نصَّ العهدُ على (ولا يكلفَ أهل الذمة منهم بالخروج مع المسلمين إلى عدوهم، فإنه ليس على أهل الذمة مباشرة القتال وإنما أعطوا الذمة على ألا يكلفوا بذلك، وأن يكون المسلمون ذِباباً عنهم)، وفي حديث آخر قال الرسول- صلى الله عليه واله- (من عادى ذميا فأنا خصيمه يوم القيامة) وبذلكَ الحديث الأخير؛ لم يكن يأمرنا المصطفى بإنصافهم وحسب؛ وإنما عدم معاداتهم وبغضهم، وللفاروق في ذلك بدٌّ من الذكر؛ فحينما فتح بيتَ المقدس؛ دخلها مسالماً مستأمناً على أهلها ورهبانها وكنائسها، ولوقعِ رجلهِ خطىً على كنيسة (القيامة).

جاءَ الإسلامُ بشريعته السمحة ليذكر الآخر بضرورةِ الإيمانِ بَالله وما نَزّلَ من عنده من توراة وإنجيلِ وزبور وصحف؛ التي وصفَها علماؤًها بالتَحريف والتزوير؛ إلا أنّ القرآن قد أنصف تلك اَلكتبِ السماوية بأن اعترفَ بها في قوله تعالى (اللهُ لاإلَهَ إلاّ هُو َالْحَيُّ الْقَيُّومُ. نَزّلَ عَلَيْكَ الْكتَابَ بَالْحَقّ مُصَدّقًا لّمَا بَيْنَ يَدَيْه وَأَنزَلَ التّوْرَاةَ وَالإَنجيل. من قَبْلُ هُدًى لّلنّاسَ وَأنزَلَ الْفُرْقَانَ)، ولَيسَ ذَلك وحسب؛ بلَ إنّ القرآن أمَرَ بالعمل عليها وِأمر بتطبيقها حينما قالٍ تعالى (وَلّيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجيل بمَا أنزَلَ الله فيه) وقال أيضًا (وِكيف يُحَكمُونَكَ وَعندَهُمُ التَوْرَاةُ فيها حكم الّله)، وحينَ بعث الرَسول - صلى الله عليه وآلَه - برسوله إلى (المقوقس) عظيم قبط الروم؛ قال رسَولهُ للمقوقسَ (إنّا ندعوك للإسلام، الكافي به الله فَقْدَ ما سواه، ولسنا ننهاك عن دين المسيح بل نأمرك به).

bassam.alkalbani@aiesec.net